﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النّساء: 171]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكرَت الآياتُ السّابقةُ الرّدَّ على غُلوِّ اليهودِ في عيسَى (عليه السلام)، من حَطِّ رُتبته، والكفرِ به، والسَّعي في قتْله وصَلْبه، واتّهامِ أمِّه البتولِ، أتْبعَ ذلك بالرّدِّ على غُلوِّ النّصارى، الّذين أفْرَطُوا في رفْع رتْبته، وادّعاءِ أُلوهيّته، أو أنّه ابنُ الإله، أو ثالثُ ثلاثة، وطالَبَهم بالاعتدالِ في أحكامِهم ومواقِفِهم.

ضرورةُ الالتزامِ في وصفِ المسيحِ وأمِّه، بما نصّت عليه الآيةُ وأكّدَهُ القرآنُ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: أصلُ الغُلُوّ: المجاوزةُ للشّيءِ والزّيادةُ. يُقالُ: غَلا السّعرُ، وغَلا في القَدْر والأمْر، وغَلا السّهمُ: يَغْلو، باتّفاق الفعلِ في كلِّ ذلك، وأوقعُوا الفَرقَ بين المعاني في المصادر؛ فقالوا: في السّعر: غَلاءً، وفي القَدْر والأمرِ: غُلُوًّا، وفي السّهم: غَلْوًا، والغُلُوُّ الزِّيادَةُ في عَمَلٍ على المُتَعارَفِ منْه، بحَسَبِ العَقْل أوِ العادَةِ أوِ الشَّرْع، وقد يكون الغُلوّ إفراطًا، أو تفريطًا، والغُلُوُّ في الدِّين: التّشَدُّدُ فيه ومُجاوَزَةُ الحَدِّ بالتّنطّع في البحْث عن بواطنِ الأشياء، والكشْفِ عن عِللها، وغوامضِ مُتَعَبَّداتِها، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ معناه لا تُجاوِزوا فيه القَدْرَ الّذي حُدَّ لكم[1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (غلوي)، الرّاغب، المفردات: (غلا)، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلو).وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/290.

2) ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: اسمٌ مُشتركٌ بين الدّجالِ وعيسَى (عليه السلام)، ويُطلقُ ابتداءً على عيسى بنِ مريم، لأنّه كان بمعجزةِ اللّه يمسحُ على الأكمهِ والأبرصِ، فيُشفَى كأنّه لم يُصبْه بأسٌ، وقيل لسبب أنّه عند ولادتِه من بطنِ أمِّه، كان ممسوحًا أي لم يكنْ عليه منَ الدّمِ وماءِ النِّفاس ما يكونُ عادةً على المولودِ عند الوضع، وقال البعضُ: "إنّ المسيحَ بمعنى الصّديقِ، أو لأنّ باطنَ قدمِه كان سويًّا، أو لأنّه كان يسُوحُ في الأرضِ كثيرًا، وهذا وجهُ اشتراكٍ بينه وبين الدّجّال"[1].

3) ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾: الرُوحُ خلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللّه، لَمْ يُعْطِ علْمَهُ أحدًا؛ وفي قولِه تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15]، قال الزّجّاجُ: جاء في التّفسيرِ أنَّ الرُّوحَ الوحْيُ أو أمْرُ النّبوّةِ؛ ويُسمَّى القرآنُ رُوحًا، ابْنُ الأعرابي: الرُّوحُ الفَرَحُ. والرُّوحُ: القُرْآنُ. والرُّوحُ: الأَمرُ. والرُّوحُ: النَّفْسُ"[2]، والرّوحُ مُؤنّثٌ إذا كَانَ بِمَعْنى النَّفس، ومذكّرٌ إذا كَانَ بِمَعْنى المُهجة[3]، قَال الأَزهري: وكذلك قَوْلُه في عِيسَى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، أَي رَحْمةٌ مِنْهُ تَعَالَى[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تفنيدُ عقائدِ أهلِ الكتابِ الباطلةِ في تأليهِ المسيحِ وتقْديسِه:

يُخاطبُ اللّه أهلَ الكتابِ بأنْ يعْتدِلُواْ، ولا يُجاوِزُواْ الحقَّ في الدِّين، وفي اللّه ورسُلِه، فيُفرِطُواْ في حبِّ عيسى عليه السلام، فيرفَعُواْ شأنَه إلى ادّعاءِ ألوهيتِه، أو كما قالواْ: إنّه إلهٌ أو ابنُ إله أو ثالثُ ثلاثةٍ، ثمّ بيّنَ لهم حقيقةَ عيسَى عليه السلام بأنّه بشَرٌ خرَجَ مِن بَشَرٍ فهو ابنُ مريم، وأنّه رسولُ اللّه، وهذا تكذيبٌ لمن كفرَ برسالتِه، وأنّه كلمةُ اللّه الّتي ألقاها إلى مريمَ، وأنّه روحٌ مبتدأةٌ منَ اللّه، وهذا ردٌّ على منِ ادّعى أنّه ابنُ الإله، ودعاهُم إلى الإيمان باللّه وحده، المنزّهِ عنِ الصّاحبة والولدِ، ونهاهم عن ضلالِ الاعتقادِ والقولِ بالتّثليثِ، فلو أراد اللّه أن يتّخذ ولدًا لاصطفَى ممّا يخلقُ ما يشاءُ، فلَه ملكُ السّموات والأرض، ومن فيهنّ

(1) نكري، دستور العلماء: 4/60.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 471.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (روح).

وما فيهنّ، لكنّه إلهٌ واحدٌ أحدٌ، لم يلدْ ولم يُولَد، وهو وكيلُ كلِّ شيءٍ، وكفَى به وكيلًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ في الآيةِ:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الخطابُ لأهلِ الكتابِ، وهو لفظٌ عامٌّ يشملُ (اليهود والنّصارى)، ويراد به هنا (النّصارى)، من بابِ إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ، بدليل قولِه تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ وهذه مقالةُ النّصارى خاصّةً، ففي الآية مجازٌ مرسلٌ، واختيارُ هذا اللّفظ (أهل الكتاب) تعريضٌ بهم حيث خالفُواْ ما نصَّ عليه كتابُهم، منَ القولِ الحقِّ في اللّه وأنبيائِه[1].

المـــرادُ بلـفـظِ (أهـل الكـتـاب) التّعريضُ بهم، لمـخـالـفـةِ نـصِّ كتابِهم

دَلالةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾:

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ استعارَ لفظَ الغُلوِّ في الدِّين، وهو تَجاوُزُ الحَدِّ الَّذي حَدَّدَهُ الدّينُ، من غلَيان الماء في المِرْجلِ، وارتفاعِه عن حدِّه، أو مِنْ غَلْوَةِ السَّهْمِ، وهي مُنْتَهى انْدِفاعِه، كنايةٌ عن مجانبةِ الحقّ والاعتدالِ، والزّيادةِ في الدِّين ما ليس منه.

الغُلوُّ في الدِّين أصلٌ لكثيرٍ منَ الضّلالاتِ

وإنّما كان نهيُهُم عَنِ الغُلُوِّ لِأَنَّهُ أَصْلٌ لِكَثيرٍ مِنْ ضَلالاتِهِمْ، وجاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ عطفُ الخاصِّ ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ على العامِّ ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بالنّهي عنِ الافتراءِ الشَّنيعِ[2]، وتكرارُ ﴿لَا﴾ يُفيدُ التّوكيدَ.

تعْديةُ القَولِ بـ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِه معنَى الافتراءِ:

وعدّى القول بـ﴿عَلَى﴾ فقال ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ القولَ هنا يتضمّنُ معنى الافتراءِ والكذبِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾

حُـجـجُ المفترين على الله في تأليهِ المسيحِ واهيـةٌ ومتهافتةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوي: 6/50..

[آل عمران: 78]، وفوقَ ذلك إنّها لا تعتمدُ على الحقِّ الثّابتِ، والبرهانُ القاطعُ قائمٌ في أنّ عيسَى وُلِد، والإله لا يولَد، وعيسَى كان يأكلُ ويشربُ، والإلهُ ليس كذلك، وقد زعمُواْ أنّهم قَتلُوه، والإلهُ لا يُقتلُ، وزعمُواْ أنّه قُتِلَ افتداءً للخليقةِ عن عصيانِ آدمَ للّه تعالى، وليسَ منَ المعقولِ أن يفتَدِيَ اللّه الخَليقةَ عن عصيانِ أبيها، بتَمْكينِهم من قَتْل ابنِه في زعمِهم، فإنّ ذلك القَتلَ جريمةٌ أشدُّ وأشنعُ، وإذا كانتِ الأُولى تحتاجُ إلى فِداءٍ، فالثّانيةُ لا يُغني عنها فِداءٌ، ولكنْ هكذا سَوّغ لهم الوهمُ[1]، قال صاحب (محاسن التّأويل): "لو كان إلهًا لما توارَى منهم خائفًا من قتلهم له؛ لأنّ الإله هو خالقُ لهم ولعملِهم، وعالمٌ بزمن قدرتِهم عليه، فكيف يفرُّ وهو يعلم وقتَ موته؟ وهو خالقُ الموت والحياة؟ ثمّ إنّه يحتملُ أنّ اللّه تعالى ألقى شبهَه على شيطانٍ، أو مارِدٍ من مرَدَةِ الجنّ ليخلِّصَ نبيَّه ورسولَه من أيدي أعدائِه، ويرفعَه إليه محفُوظًا مكرّمًا، كما أجرى على يديه إحياءَ الموتى، وخَلقَه من غير أبٍ، وأبرأَ الأكمهَ والأبرصَ، لا سِيّما وهو بزعمِهم إلهُ العالَمِ وخالقُ الإنسِ والجنِّ وبني آدمَ، فأيُّ ضرورةٍ تدعُو لإثباتِ أنواعِ الإهانةِ والعذابِ، على ما زعمواْ لربّ الأرباب، مع وجود التّناقضِ فيما نقلتْه أناجيلُهم، في هذا الفصلِ والبابِ"[2]، وممّا نُقل في هذا المضمارِ ما يُنسبُ للدّميريّ (ت: 699هـ)، حيث يقولُ:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى *** وَإِلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ!

أَسْلَمُوهُ إِلَى اليَهُودِ وَقَالُواْ *** إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ

فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا *** وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟

حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهِينَ الأَعَادِي *** أَتُرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوهُ؟

فَلَئِنْ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ *** فَاحْمَدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ عَذَّبُوهُ

وَلَئِنْ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرُكُوهُ *** وَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1978.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

(3) الأبيات منسوبةٌ إلى عبد العزيز الدّميريّ الدّيريني، من شعراء العصر المملوكيّ، (ت: 699هـ)، على خلاف في ذلك، والشّاعرُ عالمٌ ومفسّرٌ وأديبٌ ذو قدْرٍ رفيعٍ عند من ترجمُوا له، وله منظومةٌ مطوّلةٌ بعنوان: (التّيسير في علم التّفسير). القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

الفرقُ بين الاستثناءِ بلفظِ (إلّا) ولفظِ (غير) في السّياقِ:

ورودُ النّهـــي عنِ الغُلوّ دليلٌ على ولـوغِ أهلِ الكتابِ فيه

﴿إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أداةُ حصرٍ، وقصرٍ، أي: فقط قُولُواْ الحقَّ، وهو الأمرُ الثّابتُ الّذي لا يتغيّرُ، وقَوْلُ الحقِّ هو تَنْزيهُهُ تعالى عَنِ الشَّريكِ والوَلَدِ والحُلولِ والاتِّحادِ[1]، ووصْفُه بما وصَفَ به نفسَه، ووصَفَتْه به رسُلُه، وهذا مثلُ قولِه تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 77]، أي: لا تَغْلُواْ في دينِكم غُلُوًّا غيرَ الحَقِّ المعروفِ، أي: غُلُوًّا باطلًا.

وجاءتْ آيةُ النّساء في سياقِ القَول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وآيةُ المائدة جاءتْ في سياق اتّباعِ أهواءِ قومٍ، كما أنّ آيةَ النّساء جاءت بالاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾، وآيةُ المائدة بـ(غَيرَ)، وهي تُفيدُ المغايرةَ؛ فآيةُ المائدة: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: تشملُ معنى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وقد تكونُ لمعنًى آخرَ هو عدمُ اتّباعِ أهواءِ قومٍ؛ وقريبٌ من هذا لو قُلنا: لا تَعبدْ إلّا اللّه، ففيهِ الأمرُ بعبادةِ اللّه فقط، ولو قُلنا: لا تَعبُدْ غيرَ اللّه: ففيهِ نهيٌ عن عبادةِ غيرِ اللّه، ومتضمِّنةٌ الأمرَ بعبادةِ اللّه تعالى وحدَه.

التّوكيدُ بأسلوبِ القَصْر، وأثرُه في المعنى:

قصرُ الموصوفِ على الصّفةِ في الآية

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، فلفظُ ﴿إِنَّمَا﴾ أسلوبُ قَصْرٍ يُفيدُ التّوكيدَ، وهو من قصْرِ الموصوفِ على الصّفةِ حيثُ قصَرَ المسيحَ على صِفاتٍ ثلاثٍ: صِفةِ الرّسالةِ، وصفةِ كونِه كلمةَ اللّه أُلقِيَتْ إلى مَريمَ، وصفةِ كونِه روحًا من عند اللّه؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أحْدَثَه غُلُوُّهم في هذه الصّفاتِ، غُلُوًّا أخْرجَها عن كُنهِها؛ فعيسى مقصورٌ على صفةِ الرِّسالةِ، وصفةِ الكلمةِ، وصفةِ الرّوحِ، لا يتجاوزُ ذلكَ إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/142.

ما زادوهُ على تلكَ الصِّفاتِ، من كونِ المسيحِ ابنًا للّه، واتِّحادِ الإلهيّةِ به، وكونِ مريمَ صاحبةً[1]، تعالى اللّه عن ذلكَ عُلُوًّا كَبيرًا.

وهذه الجملةُ مَسوقةٌ لتعليلِ النَّهي، عنِ القَولِ الباطلِ، مبيِّنةٌ للمُرادِ من قولِ الحقِّ قبلَها، لذلكَ فُصِلَتْ عنها من غير عطفٍ بالواو.

الدّلالةُ البلاغيّةُ لتعدّدِ الصّفات لعيسى بنِ مريمَ عليه السلام:

﴿ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي هذا نسَبُه وليس له نسبٌ غيرُ هذا، ومَنْ كانَ مَنْسوبًا بوالِدَتِه كَيْفَ يَكونُ إلَهًا!، و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو مقصورٌ على رُتبة الرِّسالة لا يتَخطّاها، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ سُمِّي عيسَى عليه السلام كلمة اللّه؛ لكونه مخلوقًا بالكلمة (كن)، من غيرِ واسطةِ أبٍ ولا نطفةٍ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، أُطلق السّببُ وأُريدَ المسبَّبُ.

سُمِّي عيسَى كلمة الله؛ لأنّه مخلوقٌ بكلمة (كُنْ)، من غير أبٍ ولا نُطفةٍ

إضافةُ (الكلمة) إلى الله، وتأخّرُها عن وصف الرّسالةِ، في قولِه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾:

وإضافةُ الكلمةِ إليه تعالى إضافةُ تخصيصٍ وتكريم؛ فهو مِن أشرفِ عبادِ اللّه وأكرمِهم عليه، وهذه الإضافةُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الحجّ: 26]، وقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، وقدّمَ كونَه عليه السلام رسولَ اللّه في الذِّكر مع تأخُّرِه في الوجودِ عن كونِه كلمَتَه تعالى، وروحًا منه؛ لتَحقيقِ الحَقِّ مِنْ أوّلِ الأمرِ بما هو نَصٌّ فيه لا يَحتملُ التّأويلَ، وتعيينِ مآلِ ما يَحتمِلُه، وسدِّ بابِ التّأويلِ الزّائغ[2].

وصفُ المسيحِ بالنَّصِّ الّذي لا يَحتملُ التّأويلَ، وسدُّ بابِ التَّضليلِ والزَّيغِ

ومعنى ﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أمَرَ بها الملائكةَ، أو أَعْلَمَها بها وأَخْبَرَها، وأصْلُ الإلقاءِ: طرْحُ الشّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسْمًا لكلِّ طَرْحٍ[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/51 - 52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي)، وابن جرير، جامع البيان: 7/703 - 704، والرّاغب، المفردات: (لقي).

دَلالةُ ذكْرِ اسمِ (مريم) صريحًا في القُرآن، دُون سائرِ نساءِ العالمين:

تشريفُ مريمَ في القرآنِ الكريم تشريفٌ للمرأةِ الصّالحةِ إلى يومِ الدّين

ومريمُ ابْنَةُ عمرانَ سُمّيَتْ باسمها سورةٌ من سُوَر القرآنِ الكريم، ووَرَدَ اسمُها العلَمُ صريحًا في القرآن، وقد ذكرَ القُرطبيُّ لطيفةً في ذلك، قال: لَمْ يَذْكُرِ اللهُ ﷻ امْرَأَةً وسَمّاها باسْمِها في كِتابِهِ إلّا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ، فَإنَّهُ ذَكَرَ اسْمَها في نَحْوٍ مِنْ ثَلاثينَ مَوْضِعًا لِحِكْمَةٍ ذَكَرَها بعضُ الأشياخِ؛ فإنّ الملوكَ والأشرافَ لا يَذْكُرونَ حَرائِرَهُمْ في المَلَإِ، ولا يَبْتَذِلونَ أَسْماءَهُنَّ، بَل يُكَنّونَ عَنِ الزَّوْجَةِ بِالعُرْسِ والأَهْلِ والعِيالِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، فَإنْ ذَكَرُوا الإماءَ لَمْ يُكَنُّوا عَنْهُنَّ، ولَمْ يَصونُوا أَسْماءَهُنَّ عَنِ الذِّكْرِ والتّصْريحِ بِها، فَلَمّا قالَتِ النَّصارى في مَرْيَمَ ما قالَتْ، وفي ابْنِها صَرَّحَ اللهُ باسْمِها، ولَمْ يُكَنِّ عَنْها بِالأُمُوَّةِ والعُبودِيَّةِ الَّتي هِيَ صِفَةٌ لَها، وأَجْرى الكَلامَ عَلى عادَةِ العَرَبِ في ذِكْرِ إمائِها[1].

تنكيرُ لفظِ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لتقدير أنّها روحٌ نفيسةٌ شريفةٌ:

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ عنِ النّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام في درْعِ مريمَ فحمَلَتْ بإذن اللهِ تعالى بعيسَى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، سُمِّي النّفخُ روحًا؛ لأنّه ريحٌ تخرجُ منَ الرُّوح، وقد جرت العادةُ بأنّهم إذا أرادوا وصفَ شيءٍ بغايةِ الطّهارةِ والنّظافةِ، قالوا إنّه روحٌ؛ ولمّا كان عيسَى عليه السلام متكوِّنًا منَ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ وُصِفَ بالرُّوح، ونُكِّرَ ﴿وَرُوحٌ﴾ لِأَنَّ المَعْنى عَلى تَقْديرِ صِفَةٍ، أَيْ: وروحٌ شَريفَةٌ نَفيسَةٌ من قِبَلِه تعالى[2]، وأضاف الرّوحَ إليه تعالى تشريفًا؛ لأنّها كانت بأمرِه وتقديرِه.

الكنايةُ عن نفخةِ جبريلَ بالرّوحِ، لكون المسيحِ متكوِّنًا منَ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ

حرف (مِنْ) لابتداء الغاية مجازًا؛ لأنّ عيسَى روحٌ بدأ منَ الله مخلوقًا بالنّفخةِ:

و(مِنْ) في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، وليستْ

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/21 - 22.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/143.

تبعيضيّةً، كما زعم بعضُ النّصارى أنّ عيسَى جزءٌ منَ اللّه[1]، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]، أي روحٌ بدأَ منَ اللّه تعالى بالنّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام، أو الرّوحُ مُرسلٌ من عند اللّه تعالى، ونافخٌ بإذنه.

ما في الأناجيلِ أنّ المسيحَ لا علاقةَ له بالألوهيّةِ ولا بالبُنوّةِ

وآثرَ هذين الوصفَيْن: (كلمة) و(روح)، لورودِهما في كُتبِهم ودورانِهما على ألسنةِ حواريِّيهم، ومعناهما بيّنٌ لديهم، ثُمّ فُهِمَا خطأً، فأُريدَ التّنبيهُ عَلى ذَلكَ الخَطأ في التّأويلِ، أَيْ أَنَّ قُصارَى ما وَقَعَ لَدَيْكُمْ مِنْ كَلامِ الأَناجيلِ، هو وَصْفُ المَسيحِ بِكَلِمَةِ اللّه وبِرُوحِ اللّه، ولَيْسَ في شَيْءٍ مِنْ ذَلكَ ما يُؤَدِّي إلى اعْتِقادِ أَنَّهُ ابْنُ اللّه وأَنَّهُ إلهٌ[2].

الفاءُ الفصيحةُ وأسلوبُ الاحتراسِ يُجلّيان الأمرَ بالإيمان النّقيِّ من كلِّ زعمٍ فاسدٍ:

الفاءُ الفصيحةُ؛ في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾، أَيْ: إذا وَضَحَ كُلُّ ما بَيَّنَهُ اللّه مِنْ وَحْدانِيَّتِه، وتَنْزيهِه، وصِدْقِ رُسُلِه ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾، وقد أُمِروا بالإيمان باللّه مع كونِهم مُؤمنين به؛ لأنَّهم لَمّا وصَفُوا اللّه بما لا يَليقُ، فقد أَفسدُوا إيمانَهم، وليكونَ الأمرُ بالإيمان باللّه، تمهيدًا للأمرِ بالإيمانِ برُسله جميعِهم، وهو المقصودُ، وهذا بمنزلة الاحتراسِ، عن أن يتوهَّمَ مُتوهِّمون أن يُعرضُوا عنِ الإيمان برسالة عيسَى عليه السلام، مبالغةً في نفْي الإلهيّةِ عنه[3].

الأمرُ بتجديدِ الإيمانِ وتنقيّته منَ الشّوائبِ والأباطيلِ

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، نهاهُم عنِ النّطق بهَذِهِ الكَلِمَةِ، ولَعَلَّها كانَتْ شِعارًا لِلنَّصارى في دينِهِمْ، كَكَلِمَةِ الشّهادَةِ عِنْدَ المُسْلِمينَ، والمَقْصودُ النَّهْيُ عَنِ النُّطْقِ بها بدلالتِها الاعتقاديّة[4]، و﴿ثَلَٰثَةٌۚ﴾ فيه إيجازٌ بحذف المبتدأ، وحَذْفُهُ لِيَصْلُحَ لِكُلِّ ما يَصْلُحُ تَقْديرُهُ مِنْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/143، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/295.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53 - 54.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

مَذاهِبِهِمْ مِنَ التَّثْليثِ، فَإِنَّ النَّصارى اضْطَرَبوا في حَقيقَةِ تَثْليثِ الإِلَهِ، واختلفُوا في كيفيّته[1]؛ وقدَّر صاحبُ الكشّاف المبتدأ المحذوفَ على تقديرين، قال: فإنْ صَحَّتِ الحكايةُ عنهم، أنّهم يقولون: هو جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ، أُقْنومِ الأبِ، وأُقْنومِ الابنِ، وأُقْنومِ رُوحِ القدس؛ وأنّهم يريدون بأُقنوم الأب: الذّاتَ، وبأُقنوم الابن: العِلْمَ، وبأُقنوم رُوحِ القدس: الحياةَ، فتقديرُه: اللّه ثلاثةٌ، وإلّا فتقديرُه: الآلهةُ ثلاثةٌ.

الأمـــرُ بـــتركِ المناهي اللّفظيّةِ الّـتـي تُـعـارضُ جَـوهرَ الـوحـيِ، وتَفترِي على اللّه الكذبَ

قال: والّذي يدلُّ عليه القرآنُ التّصريحُ منهم، بأنّ اللّه والمسيحَ ومريمَ ثلاثةُ آلهة، وأنّ المسيحَ وَلَدُ اللّه من مريمَ، ألا ترى إلى قولِه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30][2].

وقولُه: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ تأكيدٌ للنّهي، في قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾، وفي التّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ دليلٌ على أنّهم لم يَعتَنِقوا ما يدَّعون اعتقادًا جازمًا، بل إنّهم إن فكّرُوا غيّرُوا، و﴿خَيْرًا﴾ منصوبٌ على أنّه خبرُ كان المقدّرةِ، على مذهب الكِسائيّ وأبي عُبَيدة، ففيه إيجازٌ بحذفِ العامل؛ أي: انتهُوا يكنِ الانتهاءُ خيرًا لكم؛ لأنّكم تَخرُجون من حَيرةِ الأوهام، إلى تفكيرِ العقولِ، وتُدركون الحقَّ، وتُذعِنون له، وتَكُونُونَ مُؤمنينَ بالمسيحِ حقًّا وصِدقًا[3].

قصرُ الأُلوهيّةِ على اللّه وحدَه:

اتّخاذُ الولدِ دليلُ الضّعف، وأَمارةُ الحُدوثِ، واللّهُ مُنزَّهٌ عن ذلك

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أسلوبُ قصْر بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ للدّلالةِ على انفرادِ اللّه تعالى بالألوهيَّةِ، وأنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وجاء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/593 - 594.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1983 - 1984م، قال أبو حيّان: "في تَقْدِيرِ النَّاصِبِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: مذهبُ الخليل، وَسِيبَوَيْه، (وَأْتُوا خَيْرًا لَكُمْ)، وَهُوَ فِعْلٌ يَجِبُ إِضْمَارُه، وَمَذْهَبُ الكِسَائِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَة: يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ، وَيُضْمَرُ إِنْ يَكُنْ وَمَذْهَبُ الفَرَّاءِ إِيمَانًا خَيْرًا لَكُمْ وَانْتِهَاءً خَيْرًا لَكُمْ، بِجَعْلِ خَيْرًا نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ الَّذِي قَبْلَهُ"، ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/142.

بقولِه: ﴿وَٰحِدٌۖ﴾ لزيادة تأكيد القصرِ؛ أي: المعبودُ بحقٍّ ليس إلّا واحدًا، وهو اللّه تعالى، ووحدانيّتُه تكونُ في الذّات والصّفاتِ والعُبوديّةِ، والواحدُ لا يتَجَزّأ، ولا يكونُ منه ولدٌ، أو يكونُ له والدٌ، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾، أي: تنزّهَ اللّه تعالى، عن أَن يكون له ولدٌ؛ لأَنّ اتّخاذَ الولدِ دليلُ الضّعف، وأَمارةُ الحُدوث، وصِفةُ العاجزِ المحتاجِ، إلى مَن يُعينُه في حياته، ويَخْلُفُهُ بعد مماته، واللّه ﷻ منزَّهٌ عن كلِّ ذلك[1]، ومُنزَّهٌ عمّا لا يليقُ به من كلِّ نقْصٍ.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: فيه تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾؛ لإفادة القصْر في انفرادِ اللّه تعالى وحدَه بالمُلك، والجملةُ مُستأنَفَةٌ مَسوقَةٌ لتَعليلِ التّنزيهِ، أي: إذا كانَ يَمْلِكُ جميعَ ما فيهما، فكيف يُتَوَهّمُ حاجتُه إلى وَلَدٍ.

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباقٌ، وقدّمَ السّمواتِ على الأرض، لعِظَم خَلْقِها.

وكرّرَ ﴿وَمَا فِي﴾ على عادة القرآنِ حين يريدُ أن يتكلّمَ عن أهلِ الأرضِ بشيءٍ ما يخصُّهم، فإنّه يكرّر كلمة (ما في)، فيقول: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإلّا فيقولُ: (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

ويُلاحَظ في كلّ موضعٍ نزَّه اللّه فيه نفسَه عنِ الوَلَد، ذكَرَ كونَهُ مَلِكًا ومالكًا، لما في السّمَوات والأَرض، لِيَكونَ دليلًا عليه، إذِ المعْنى: تَنَزَّه اللّه عنْ أَنْ يكونَ له وَلَدٌ؛ لأَنّ له ما في السّمواتِ وما في الأَرض[2]، وهو غنيٌّ عنهم.

مناسبةُ التّذييلِ باللّه الوكيلِ:

اللّه وحدَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، ولا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أَي: كفى باللّه قيّمًا على خلقِه، ومدَبّرًا لهم، فهو وحدَه سبحانَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، وفي حِفْظِ هذا الكونِ، فلا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه، ولا إلى إلهٍ آخرَ يُدبّر أَمْرَ الكونِ معَهُ[3]، وهذه مناسَبةٌ لطيفَةٌ في تذْييلِ الآية.

(1) مجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/991.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272، ومجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/992.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»